أثر البلاغة على تفسير القرآن الكريم

د-سميع الله الزبيرى*

د-الحافظ حسن مدنى*

This paper aims to study the capacity of Arabic rhetorical impact on Quranic Tafseer. No doubt that the Holy Quran is a miracle in its all aspects particularly in rhetoric perceptive. The main purpose of the rhetorical study is to explore the effect of rhetoric on the interpretations of Quraan .The Quranic Tafseer has been primarily compiled in Arabic language therefore Arabic language is considered basic source to prove the Holy Quraan as a miracle .So it is important to find out the role of Arabic rhetoric in proving that The Holy Quraan is word of Allah Almighty. Furthermore, this article has illustrated the most relevant books compiled in the perspective of the Quranic rhetoric study. These books highlight the impact of Arabic rhetoric on Tafseer of Quran particularly in first five centuries. This study will be significant source of information for researchers of this field.

Keyword; Quran, Rhetoric, Tafseer, Arabic, Compilation

بسم الله والصلاة والسلام علي رسول الله وبعد, فلما سمع العرب كلاما من القرآن المجيد والتنـــزيل الحميد لم يكن في بالهم أن يأتى أحد من البشر بمثل هذا الكلام المحكم والمتناسب في سوره وآياته وفواصله وزد على ذلك في درسه لتربية أخلاق البشرية قاطبة، ولكن كانوا قد تجربوا ومرنوا على مهارات الكلام تقديما وتأخيراً وحذفا وزيادة وقصرا و وصلاً وما إلى ذلك من شتى أنواع أساليب الكلام.

فقاموا ضد هذه التنـــزيلات الإلهية ولعدم فهمهم بالآخرة وعدم إيمانهم ببعث الله نبياً منهم. فحاولوا أى محاولة لتكذيب الكلام الإلهي المنـــزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : فقد أخبر الله عن عنادهم هذا في القرآن قائلاً:

قوله تعالى: .وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـٰـذَا إِلاَّ إِفْكٌ ٱفْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءاخَرُونَ فَقَدْ جَاءوا ظُلْماً وَزُوراً وَقَالُواْ أَسَـٰـطِيرُ ٱلأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِي تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً. (1)

---

* محاضر كلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية، جامعة العلامه إقبال المفتوحة، إسلام آباد

* الأستاذ المساعد بقسم اللغة الاسلامى٥، بجامعة بنجاب، لاهور

وقد أدهش هذا الكلام جهابذتهم وصناديدهم وبلغاءهم بحسن سمكه وتناسبه وبحسن الأداء وقوة التأثير وتحدى قائلاً: قوله تعالى:.أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ o وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا.(2)

قد قام عدّة أشخاص من العرب الأقحاح لاستعراض كلام التنزيل وقد قارنوه بسجع الشاعر والناثر وسحر الساحر ولكن شهد شاهد منهم أن الحقيقة عكس ذلك. وفي التنـــزيل.

قوله تعالى: .وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِين. (3)

إعتراف الكفار المعاندين أن القرآن ليس بكلام البشر

والمعروف لدينا رواية تاريخية مروية عن بليغ العرب الوليد بن المغيرة (4) إذ جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فسأل ما سأله عن رسالته وكلام عنده صلى الله عليه وسلم. فأوقفه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ عليه جزءاً من القرآن الكريم المنزل آنذلك.

فلما سمع المغيرة الكلام تغيرت حالته الداخلية ورق القلب الذى كان كالصخرة الصماء ثم رجع إلى قومه ووصل الخير إلى أبي جهل رأس الكفر. فقام أبو جهل غاضبا وقال يا عم: إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوك لئلاً تأتى محمداً لتعرض له. و لما سمع الوليد هذه الألفاظ وقعت على سمعه هذه الألفاظ كالصاعقه فرد غاضبا، منادياً يا أباجهل. قد علمت قريش أنى من أكثرها مالاً. فقال أبو على هذا: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك كاره له. قال الوليد: ماذا أقول؟ فو الله ما عليكم رجل أعلم بالشعر منى ولا برجزه ولا بقصيدة ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا فإن لقوله الذى يقول حلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله: وإنه ليعلو ولا يعلى عليه وإنه ليحطم ماتحتة.(5)

فقال له أبو جهل: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه فنال الوليد فدعنى حتى أفكر.

فلما فكر. قال: هذا سحر يؤثر بأثره عن غير فقد جاء في القرآن:(6)

من قوله تعالى : . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ o ثُمَّ نَظَرَ o ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ o ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَo فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ.) 7)

بسرد هذه القصة عرفنا أن بليغ العرب وأشعرهم وأعلمهم بموضوعات الشعر إنسا وجنا أى الوليد بن المغيرة، لم يستطع أن يقنع نفسه أن القرآن كلام البشر. حتى فكرو قدر ثم وصل إلى نتيجة وهي النتيجة مبنية على تعصبه للجهل وللقبلية أن هذا سحر يؤثر. هذه بداية أثر البلاغة القرآنية على العرب البلغاء حيث قد تأثروا ولكن كابروا وجحدوا بها واستيقننتها أنفسهم ظلما وعلوّا.فلذا نجد العرب من الكفار في بداية الأمر قاموا للغو والإسراف في حدود التعصب والعناد والمكابرة فقاموا قائلين:

قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ.[8]

تحدى القرآن:

ثم تحداهم القرآن أن يأتوا بمثل ذلك شيئاً من السور أو الآيات. ونرى في التاريخ للمكابرين أنهم قاموا يحاكون القرآن محاكاة كاذبة وحاولوا إتيان مثل القرآن ولكنهم فشلوا وانكبوا على وجوهم خائبين خاسرين. فقام المسيلمة الكذاب وحاول القول مثل الوحى ولكن حينما عرض قوله على أصحابه الذين اتبعوه ضحكوا منه وأنكروا عليه . وضحكوا على جهده الفاشل وقوله الردئ أمام القول الحكيم وتتزيل العزيز الحميد وهذا هو الفضل ماشهدت به الأعداء. فالتحدى قائم حتى اليوم وإلى يوم القيامة.

قوله تعالى: .فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ . [9]

البلاغة والتفسير

إهتم المفسرون وعلماء أصول الفقه وعلوم القرآن بالتأليف البلاغي فأول ما قام العلماء المفسرون بعلم هو علم البلاغة للوصول إلى معرفة كلام الله ومراد الكلمات القرآنية وسياقه ورعاية الفواصل وما إلى ذلك من العلوم القرآنية فجعلوا كل جهودهم موجهة إلى الدراسة البلاغية للقرآن الكريم.

فمن الذين برزوا على صفحة علوم البلاغة الأولى أبو عبيده[10] فألف كتابا أسماه: (مجاز القرآن)

هذا المسمى الكتاب كان وراء ه هدفاً منشودا هو مسألة إعجاز القرآن وتحديد نوعه وجهاته فلذا نجد العلامة إبن خلدون يبين عجز الجهد البشرى عن الوصول التام إلى حقيقة الإعجاز القرآنى قائلا:

إنما هي (البلاغة) في فهم الإعجاز من القرآن لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة ومفهومة، وهي أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالألفاظ في إنتقائها وجودة رصفها وهذا هو الإعجاز الذى تقصر الأفهام إدراكه[11]ثم اشتد الصراع مع المعتزلة من قبل علماء أهل السنة حول مسألة الإعجاز التي هي لا تخلو من علوم التفسير ولا من علوم البلاغة سواءً. فأثارت المعتزلة قضية الإعجاز قائلين بالإعجاز بالصرفة أي أن الله صرف قوة العرب عن الإتيان بمثل القرآن وإلا فكان من مقدرة البشر أن يأتى مثل شبه كلام القرآن وإن كان نا قصاً فاشتد الأمر وثارت البحوث والجدال حول القضية إلى مدة مديدة حتى ظهر كتاب الإمام البلاغي الشهير عبد القاهر الجرجاني.

وكذلك كتاب: إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه لأبى عبد الله محمد بن يزيد الواسطى.وكذلك النكت في إعجاز القرآن. للرمّانى وهو الذى فرّع في هذا الكتاب البلاغة إلى عشرة فروع وهي:الإعجاز والتشبيه والإستعارة والتلائم والفواصل. والجناس والتصرف، والتضمين، والمبالغة وحسن البيان. [12]وكذلك شارك في هذه السلسلة القرآنية البلاغية، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابى صاحب: بيان إعجاز القرآن وأبرز فيه رأيه أن البلاغة في الحقيقة مبنية ومقصرة على جمال الألفاظ وحسن النظم والمعاني السامية.

وكذلك نرى أبا بكر محمد بن الطيب الباقلاني صاحب: (إعجاز القرآن) وعلى طرف آخر من المعتزلة ظهر مجلد كامل من عدة مجلات كتابه: (المغنى في أبواب التوحيد والعدل) حول قضية الإعجاز.وقيل، إنه الفكرة التي بنى عليها عبد القاهر الجرجاني كتاب: دلائل الإعجاز [13] وللبلاغة العربية شأن عظيم في مجال تفسير القرآن هذا ما ذكره الإمام الطبرى رحمه الله في مقدمة تفسيره قائلاً.

''بيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم عربى وأن القرآن نزل بلسانه فالواجب أن تكون معاني كتاب الله المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لمعاني كلام العرب

موافقة، وظاهره لظاهر كلامهم ملائما. فإذا كان ذلك كذلك فبين إذ كان موجوداً في كلام العرب الإعجاز والإختصار والإجتزاء من الإخفاء بالإظهار، وبالقلة من الإكثار في بعض الأحوال، استعمال الإطالة والإكثار والتردد والتكرار وإظهار لمعاني كلام العرب موافقة''. وظاهره لظاهر كلامهم الأوقات والخبر عن الخاص في المراد بالعام، وعن العام في المراد بالخاص الظاهر وعن الكناية والمراد منه المصرح وعن الصفة والمراد الموصوف، وعن الموصوف المراد الصفة، وتقديم ما هو في المعنى مؤخر وتأخير ما هو في المعنى مقدم، والإكتفاء ببعض من بعض وبما ظهرعما يحذف وإظهار ما حظه الحذف أن يكون ما في كتاب الله المترل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم''.(14)وكذلك قال البلاغي المفسر الشهير جار الله الزمخشري في مقدمة تفسيره :

إن أملاء العلوم بما يغمر القرائع وأنهضها مما يبهر الألباب الفوارح، هن غرائب نكت يلطف مسالكها مستودعات أسرار يدق مسلكها، علم التفسير الذى لا يتم لتعاطيه وإحالة النظر فيه كل ذى علم كما ذكر الجاحظ في كتاب: نظم القرآن، فالقية وان برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام والمتكلم وإن برّز أهل الدنيا في صناعة الكلام وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ والواعظ وإن كان من الحسن البصرى أو عظ والنحوى وإن كان أنحى من سيبويه واللغوى وإن كان علك اللغات بقوة لحيية لا يقتدى أحد منهم سلوك تلك الطرائق ولا يغوص على شئ من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما: علم المعاني وعلم البيان...انتهي .(15)

الكشاف للزمخشرى أوّل تفسير بلاغي كامل

فنرى أن الزمخشري تناول في تفسيره علوم البلاغة وهو أول تفسير بلاغي شهير وله صيت واسع في آفاق علم التفسير والبلاغة واهتمام صاحبه كبير في هذا الشأن وهو الذى فتح للمفسرين بابا للكتابة حول التفسير البلاغي وكان هو الأول الذى قرن بين التفسير والبلاغة.فكذلك مبيناً شأن هذا التفسير البلاغي قال صاحب كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز:

''إن الباعث على تأليف هذا الكتاب هو أن جماعة من الإخوان شرعوا على في قرأة كتاب الكشاف تفسير الشيخ العالم المحقق أستاذ المفسرين محمود بن عمر الزمخشري فإنه أسسه على قواعد هذا العلم فاتضح عند ذلك وجه الإعجاز من التنزيل وعرف من أجله وجه التفرقة بين المستقيم والمعوج من التأويل وتحققوا أنه لا سبيل إلى الإطلاع على حقائق إعجاز القرآن والوقوف على اسراره وأغواره ومن أجل هذا الوجه كان متميزا على سائر التفاسير لأني لم أعلم تفسيرا مؤسسا على علمى المعاني والبيان سواه، فسألنى بعضهم أن أملي فيه كتاب يشتمل على التهذيب والتحقيق''.[16]

والمفسرين لهم دور مهم في تطوير علوم البلاغة كما أن للفقهاء دورم هم لإستنباط الأحكام، ودورهما أدى إلى النظر إلى قضايا بلاغية وأسرار التعبير العربي والجملة العربية والتقديم والتأخير وما إلى ذلك. كما شاع بين الفقهاء البحوث اللغوية والبحوث الأصولية.

وكذلك المفسرون عند حل التعبير القرآنى نظروا إلى عدة أساليب البلاغة العربية لتحديد المعنى[17] وتوسع رحاب القرآن فهما وتفسيراً وشمولاً فلذلك كما قال صاحب تاريخ البلاغة العربية:

"إن المفسرين إتخذوا من البلاغة وسيلة لهم معاني القرآن فإنهم فيما بعد كانوا يشرحون ما في الآيات من بلاغة ونحو وصرف على أنه جزء من التفسير أو مدخل إليه".[18] وعلى الطرف الآخر، نرى البلاغيين الاوائل يعدون القرآن مرجعهم الأول الذى يستمدون منه أمثلتهم. وكما ذكرنا أن أعظم نصب أعين علماء البلاغة في الدراسة القرآنية هي مسألة الإعجاز، فتوالت كتب الإعجاز حول القضية ذات قيمة علمية بلاغية وتفسيرية معا. فأوّلاً يوصل بين التفسر واالبلاغة كتاب شهير وهو:إعجاز القرآن للخطابي ثم إعجاز القرآن للواسطى ثم للإمام البلاغي الرماني كتاب: بإسم: النكت في الإعجاز: وينتهي القرن الرابع الهجرى هناك. وهذا التأليف البلاغي يستمر حتى يبرز أمام أعيننا على أفق البلاغة والتفسير كتاب: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة للامام البلاغي الكبير: القاضى الجرجاني ثم بعد ما مرت مانة وخمسون

سنة يظهر كتاب آخر يشد العلاقة بين التفسير والبلاغة وهو كتاب صاحب أوّل تفسير بلاغى أى الزمخشري . وكان الزمخشري معتزليا مؤيداً لإعتزاله في تفسيره وعدة مؤلفاته الأخرى. لكن أثر تفسيره البلاغي لا يمكن أن ننساه في التأليف البلاغي. صار كتاب الزمخشري هذا مسيراً سار عليه الآخرون الذين جاواء بعده وجالوا في ميادين التفسير البلاغي وعلى أقربهم ورأسهم، القاضى البيضاوي رحمه الله.

و لا جاء مفسر بتفسير للقرآن الكريم إلا وأحال بعض المسائل البلاغية إلى الزمخشري ورجع إلى تفسيره. وخير مدحه يمكن أن نجد في مقدمة تفسير التحرير والتنوير للعلامة ابن عاشور رحمه الله.

البلاغة والتفسير بعد عهد الزمخشري

وبعد عصر الزمخشري، يوجد كتاب بديع القرآن تقريباً بين التفسير والبلاغة للامام إبن الأصبع البصري رحمه الله، وكذلك كتاب أبي بكر الرازي الموسوم بإسم: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز وهذا الكتاب في الحقيقة بيان شافي لمسألة الإعجاز القرآنى في البلاغة القرآنية.وكان البلاغيون يتناولون قضايا البلاغة ويستمدون من القرآن مباشرة ثم في تائييد ذلك كانوا يذكرون الشواهد من لغة العرب.وهناك قصة رواها صاحب كتاب نزهبة الألبا. في كتابه، وهي القصة تحكى لنا العلاقة ابواضحة بين البلاغة وتفسير القرآن وهي التي جرت بين الأصمعى وأبى عبيدة صاحب كتاب مجاز القرآن قال:'' بلغ أبا عبيدة أن الأصمعى يعيب عليه تأليف كتاب المجاز في القرآن وأنه قال: يفسر ذلك برأيه قال: فسأل عن مجلس الأصمعى في أي يوم هو، فركب حماره في ذلك اليوم، ومر بحلقة الأصمعى فنزل عن حماره، وسلم عليه، وجلس عنده وحادثه ثم قال له: يأ أبا سعيد ما تقول في الخبز؟

قال: هو الذى نخبزه ونأكله، فقال له أبو عبيدة:فسرت كتاب الله برأيك. قال الله تعالى: . إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا [19] فقال له الأصمعى، هذا شئ بان لى فقلته، لم أفسره برأي، فقال له أبو عبيدة، وهذا الذى تعيبه علينا، كل شئ بان لنا فقلناه و لم نفسره برأينا ثم قال: فركب حماره وانصرف [20]. فتبين لنا أن التفسير والتأويل يشملهما كلمة المجاز في

ضوء ما كتب أبو عبيدة. هذا دليل على الجسر القويم بين البلاغة والتفسير. ذكرنا ما فيه الكفاية حول التفسير والبلاغة في هذا المكان وللتفاصيل يرجع إلى الكتب المولفة في التفسير والبلاغة. وبهذه الكفاية.

نتائج البحث والخاتمه

بحمد الله عند ختام هذا البحث اليسير في البلاغة وقد ظهر لى من خلاله بعض النتائج الآتية:

- القرآن الكريم نزل بلسان عربى مبين فلذا له دور كبير فى حفظ اللغة العربية.
- إن بين العربية والبلاغة القرآنية علاقة وطيدة يشهد لها أمهات الكتب البلاغية القرآنية عبر القرون.
- لاغنى للباحث الطالب عن البلاغة العربية فى مجال التفسير
- التفسير ألفت كتبها فى البداية بالعربية لذا لايخلو تفسير عربى عن تأثير البلاغة في هذاالصدد
- بعض المؤلفات البلاغية لايكاد القارى يفرق بينها وبين مؤلفات التفسيرلكثرة ورود المباحث البلاغية فيها ولشموولها.
- هذا ما عندى والله تعالي أعلم بالصواب. **ولله الحمد**

الهوامش

1 - الفرقان:4-5

2 - النساء: 82

3 - الأنعام: 07

4 - الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر المخزومي القرشي ، أحد قادة قريش في العصر الجاهلى ووالد الصحابي خالد بن الوليد من أغنى أغنياء قريش حيث ورد أنه بنى ركن من أركان الكعبة الأربعة عندما قامت قريش بترميمها واشتركت باقى القبائل في الباقي زلت فيه قول القرآن في سورة المدثر "إنه فكر وقدر*فقتل كيف قدر*ثم قتل كيف قدر*ثم نظر* ثم عبس وبسر*ثم أدبر واستكبر*فقال إن هذا إلا سحر يؤثر*إن هذا إلا قول البشر*سأصليه سقر"

(أنظر لترجمته: الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزرى، تحقيق عبد الله القاضى، مطبعة، دارالكتب العلمية، سنة 1987) ، ص:87/2

5 - شعب الإيمان ، لأبي بكر أحمد بن الحسين ، الناشر: دار الكتب العلمية -بيروت الطبعة الأولى، 1410 تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول. عن ابن عباس، رقم الحديث: 122

6 - أيضاً

7 - المدثر:18 -24

8 - فصلت:26

9 - الطور:34

10 -أبو عبيدة، معمر بن المثنّى التيمي البصري. النحوي اللغوي، مولى بني تيم، تيم قريش. توفي سنة 208ه. ولد أبو عبيدة في البصرة، كان أعلم من الأصمعي وأبي زيد بالأنساب والأيام، وكان أبو نواس يتعلم منه ويصفه، ويذم الأصمعي، كان أبو عبيدة عالمًا بالشعر والغريب والأخبار والنسب. نقلا عن الموسوعة العربية العالمية لمجموعة من العلماء والباحثين

أنظر:مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع سنة النشر1419، ص:353/23

11- الإستدراك، ضياء الدين بن الأثير تحقيق الدكتور، ص:317، حضنى محمد شرف. القاهرة 1985م

12 - أنظر: البحث البلاغي عند العرب، تأليف: أحمد مطلوب، ص: 32، طبعه منشورات دارالاجاحظ للنشر، بغداد، عراق 1982م، ص: 210

13 - أنظر: الأسلوب لأحمد الشايب ، ص: 195. الناشر: مكتبة النهضة المصريةالطبعة: الثانية عشرة 2003م

14 - أنظر مقدمه التفسير الطبري طبعة، دارالكتب والمؤسسة الحامة بالقاهرة، سنة ، ص:33

15 - مقدمه تفسير الكشاف، للزمخشرى، ص: 38، طبعه، دارالكتب العربى. بيروت. سنة 1407هـ.

16 - أنظر الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى بن حمزة بن على بن إبراهيم العلوى اليمنى، مطبعة المقتطف، مصر 1422هـ، ص:22

17 - الطراز المتضمن ليحيى بن حمزة من على بن إبراهيم، دارالكتب العلمية، 1994م، المحقق عبدالحميد الهنداوى، طبعه أولى 2002م. ص:24.

18 - أنظر: تاريخ البلاغة العربية، لعبد العزيز عتيق، ص:32

19 - يوسف:36

20 - أنظر: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، لأبي البركات، الأنبارى الهيئة المصرية العامة 1972ء. ص:103